

من غالية خوجة

يسعدني أن تناقش مجموعتنا العلاقة بين اللوحة والنص

اللوحة والنص احتمالات جمالية واستكشافات تساؤلية

ملحق ثقافي

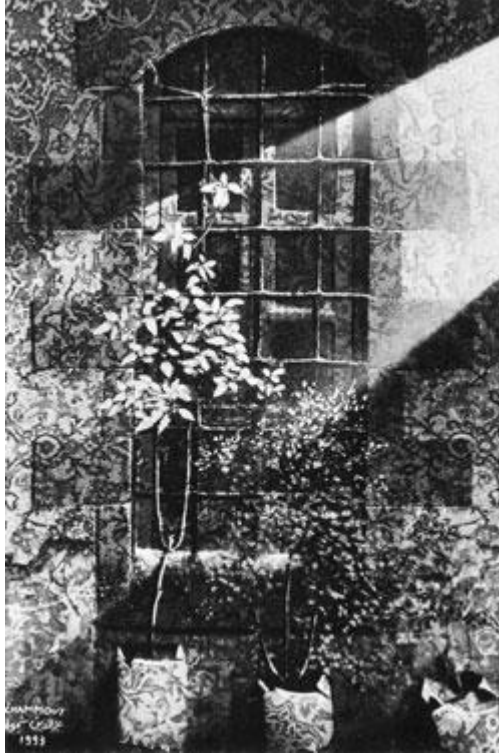
غالية خوجة:

افتتاحية التساؤلات ما علاقة الغلاف بمضمون الكتاب؟ ومتى تتشاكل دلالات اللوحة مع دلالات العنوان؟

وهل بإمكاننا اعتبار اللوحة عتبة أو مدخلاً كما العنوان؟

أم لها أن تكون نصاً منفصلاً؟

ثم، هل تساعد اللوحة القارئ على فكّ شيفرة النص؟ ماذا تعني اللوحة؟ لماذا؟ ما أهدافها الوظيفية والجمالية؟ هل غايتها تلوين الكتاب وتزيينه، أم مقصديتها تتلخص في ممارسة الجاذبية على انتباه القارئ، وشده من لا وعيه بغية اقتناء الكتاب؟



أولاً - اللوحة محور ارتكازي ومفتاح أساسي

الذي يشمل الفضاءين الخارجي والداخلي للكتاب، أي اللوحة "أنتلف النقد الحديث على مصطلح" الشكل والنص - بشكله الخارجي وبنيته المكتوبة والجمالية، كما شاعت دلالة النص على اللوحة والموسيقى والمكتوب في الأجناس الأدبية والأبحاث العلمية وسواها..

وقد ترافق المضمون لوحاتٍ وصور أخرى - رسومات داخلية - تعبّر بحركية ما عن مشهد أو رمز أو دلالة..

فهل غايتها التوضيح فقط، خاصة في الأعمال الموجهة للأطفال واليافعين، وبعض الأعمال الموجهة للكبار؟ إضافة إلى الكتب العلمية التي تبدو فيها اللوحات والصور محوراً أساسياً لا يكتمل مضمونه إلا بها، تماماً، كالعامل الصحافي الذي يظل ناقصاً ومبتوراً فيما لو تخطى عن الصورة.

وبناء على ذلك، ومنذ حضور الكتاب الورقي كصحائف وصحف، اتخذت اللوحة لحضورها محوراً ارتكازياً، يختصر الأبعاد التي ستقولها مادة الكتاب بإشارية أو مشهدية أو واقعية أو تعبيرية أو تجريدية.. إلخ..

ثانياً - وظائف اللوحة

بإمكانني تقسيم طبيعة العلاقة بين اللوحة والنص «ورقياً أو الكترونياً» إلى وظائف ثلاث:

- الوظيفة النسقية.

- الوظيفة الدلالية.

- الوظيفة الجمالية.

الشكلانية»: وأعني بها مكانة اللوحة وموقعها الشكلي في مجمل «- الوظيفة النسقية - العلاقة الظاهرية 1 العمل، وهل استطاعت أن تكون منسجمة مع العنوان والمضمون؟ وهل أنجزت فضاء حواسياً متناعماً الإيقاعات مع الكتاب ومؤلفه والمتلقي؟ كيف شابكت حاسة البصر وحولتها إلى الحواس الأخرى: السمع والشم والذوق والحدس؟

وهل كانت جملةً ضرورية من جمل الكتاب اللغوية والإيقاعية؟ أم أنها شكّلت عبئاً من نوع ما؟

لكي لا تكون اللوحة حشواً، لا بد لها أن تتوازى مع الكتاب شكلاً ومضموناً، وعليها أن تنشئ علاقة ظاهرية مترادفة تمنح إبراقاً ما ينمّ أو يشي عمّا تمثله وتعكسه من حيث الألوان والمساحة المتوزعة إلى كتلة وفراغ، ومن حيث الضوء والظل، وما بينهما من إحياءات، مراعية المسافة بينها وحجم الغلاف وهوامشه العلوية والسفلية والجانبية، ولها أن تحتوي العنوان بطريقة ما، فيها من الدلالية ما يكفي فضول القارئ لمحاولة الغوص في جاذبية الكتاب، وما تنتج من ذهانية وتخيلات وتوقعات تدفع الشخص إلى القراءة المزدوجة المفتوحة على عدة نهايات وبدايات وقراءات وأفق توقعات، والتي أختصرها في هذه المعادلة العكسية الاطرادية:

قراءة النص من خلال اللوحة

قراءة اللوحة من خلال النص

وبذلك يكون لدينا ثلاثة عناصر متكاملة:

- العنوان

- اللوحة

- المضمون = «النص»

وهذا يحيلنا إلى الوظيفة الثانية لعلاقة اللوحة بالكتاب.

العمقية: ما الذي تود أن تقوله اللوحة مشيرة به إلى الكتاب؟ وهل هي «- الوظيفة الدلالية - العلاقة الباطنية 2 مرآيا شفافة بدلالاتها ورموزها وحركاتها وإيحاءاتها؟ هل تحتل التأويل لتتشارك مع العنوان في إعطائنا الانعكاسين المتوقع، واللا متوقع، للنص؟ ماذا بين متن الكتاب وغلّافه؟ وما مدى اختزال اللوحة لمنطوقات المكتوب النصي؟ وما مدى إمكانية كشفها عن المخبوء النصي؟ هل هي لوحة صامتة، أم صائتة؟ رامزة غير مباشرة، أم دالة مباشرة؟ تشكّل حدثاً بذاتها، أم تكمل الحدث الأساسي = النص؟ هل اختزلت أهم محاور النص وجعلتها قابلة للقراءة؟ هل فتحت آفاقاً للتصور المناسب؟ أم انتبذت من نفسها خداعاً بصرياً؟!

- الوظيفة الجمالية : اللوحة مفتاح العمل الإبداعي، ولنا أن نسأل: كيف؟ ولماذا؟ 3

رغم رمزية اللوحة إلى كل من العنوان والنص، والتبادل الانعكاسي بين العناصر الثلاثة «اللوحة/ العنوان/ ، فإننا نستطيع قراءتها، فنياً وجمالياً، بطريقتين: «النص

- قراءتها بشكل منفصل عن النص. 1

- قراءتها بشكل متصل مع النص. 2

الوعي النصي» وسيكولوجيته التي تحتاج إلى قراءة تفكيكية وتركيبية «أليست اللوحة هي الحالة المجسّدة ل- تؤدي بنا إلى معرفة أحواله وتحولاته الباطنة، أي «لاوعيه»؟

ومن، ثمة، لنا أن نربط جمالياً بين وظائف اللوحة متسائلين:

هل أشارت بينيتها الدلالية والشكلية إلى بنية النص باختزال ما؟ هل حققت وأنجزت مكانها المناسب كمعبرٍ، أو بوابة، تساعد في الدخول إلى مفاتيح النص ابتداءً من العنوان وصولاً إلى المضمون؟ وهنا، تبرز وظيفة اللوحة، وإلى أي احتمال هي مناسبة أم لا؟ هل تعالقت مع الكتاب ببنية، أم أنها كانت مجرد خداع نفسي إيهامي مارسه المؤلف والناشر على القارئ؟

وكم من الكتب التجارية التي تحتفي بالغلّاف والعنوان على حساب المضمون؟

أعتقد جازمة، بأن هذا التفكير التصنيعي التجاري، من أهم أسباب كساد الكتاب وفقدانه لقيّمته المعنوية لماذا؟ لأن للقارئ حاسة فطرية تفرز الغش عن الصدق، والنفاق والربحية عن الجدية والإبداعية... والحياتية

وبالمقابل، كم من الكتب القيّمة التي تباع على الأرصفة في دمشق وحلب - مثلاً - ودون غلّاف! خاصة، تلك التي تعتبر من أمهات الكتب، فقد تجد كتاباً نادراً مطبوعاً على ورق أقل من عادي، أو منسوخ «فوتوكوبي»، ودون غلّاف، لكنه مطلوب مثل كتاب مفقود، وهذه الكتب تباع بأسعار مرتفعة حتى لو لم يكن لها غلّاف، فكيف سيكون لها لوحة غلّاف؟!

أذكر من تلك الكتب: شمس المعارف، رسائل ابن عربي..، وغيرها الكتب النادرة الأخرى.

ثالثاً - معيار اختيار اللوحة:

تختلف معايير الاختيار تبعاً للأبعاد الثقافية والمقصدية والفنية والدلالية والسيكولوجية والسوسيولوجية، وتتنوع حسب الطرف القائم بالاختيار: الناشر، المؤلف، القارئ.

- كيف يختار الناشر اللوحة؟ 1

معيار الناشر: ربحي، توفيري، قد يختصر الألوان ليقصد في تكلفة الغلاف. أحياناً، يتم اختيار لوحة ذات مستوى عناصر أقل بالنسبة للكتاب، وقد يتم اختيار لوحة ذات قيمة أكبر بغية الترويج والتسويق وضمان البيع والربح. ومعيار الناشر، عادة، ما يدخل في معيار صناعة الكتاب، وسوقه، ورؤيته لطريقة المنافسة في المكان والآن.

- متى يختار المؤلف اللوحة وكيف؟ 2

برأيي، المؤلف أفضل من يختار اللوحة المناسبة لعمله، كونه يدرك ماذا يريد، هذا فيما إذا كان كاتباً حقيقياً غير مزيف ومتطفل ومرتق واستهلاكي. وفي هذه الحالة، تميل معايير الاختيار إلى ما يعبر عن البنية ككل دلاليًا وفنيًا، فقد تكون اللوحة عبارة عن شكل تتداخل ألوانه، أو خطوط هندسية، أو ساعة عادية لكنها غير عادية من خلال تشكيلاتها مع العنوان، وإيحاءاتها، مثل لوحة مجموعة رماد مشتعل للشاعر والقاص سيف المري، وقد تكون مرتكزة على شخصية إنسانية ذات ملامح شمولية، محاطة بأموح لونية ممثلة بالاستفهامات والإشارات، مثل لوحة غلاف كتابي هكذا تكلم الصلصال للفنانة نجاة مكي، قد تكون تجريدية متناسبة مع الرؤى المتشظية مثل لوحة كتابي أسرار البياض الشعري التي اخترتها من أعمال بيكاسو.

وتختلف أساليب اختيار اللوحة تبعاً للمؤسسة الناشرة، الخاصة أو العامة، فمثلاً: اتحاد الكتاب العرب في دمشق يسأل المؤلف: هل تختار أنت لوحة الغلاف أم نتركها؟ وفي ذلك، دليل على دقة التناغم بين ما يتشاكل في أعماق المؤلف - بكسر اللام - وما يتواغل في أعماق المؤلف - بفتح اللام -، وما يتعكس من كليهما - المؤلف والمؤلف - ليصل إلى مرايا المتلقي.

- لماذا وكيف يختار المتلقي الكتاب؟ 3

تختلف معايير الاختيار مع اختلاف القارئ والهدف من القراءة أو الاقتناء. هناك قارئ يهتم بالشكل، فتغريه طريقة صناعة الكتاب، فيقتنيه، متفاخراً بمكتبته التي لا يقرأ منها إلا اللام. وهناك قارئ يهتم بعامل التوازي بين الشكل والمضمون، فيقرأ العنوان واللوحة، يتصفح الكتاب، ثم يقرر هل يستمر ويتواصل، أم يعيده إلى مكانه فلا يشتريه؟ وهناك قارئ لا يهتم باللوحة بالقدر الذي يوجه فيه اهتمامه إلى المضمون المعرفي، والثقافي، والإبداعي الذي يريده من الكتاب، وهذا النوع من المتلقي لا يتوقف كثيراً عند الشكليات لأن ما يبحث عنه من الكتاب هو الأهم بالنسبة له.

وبرأيي، في عصر الثورة التكنولوجية الرقمية، لا بد من النظر إلى الكتاب كتحفة إبداعية شكلاً ومضموناً، أنا ضد البذخ، وضد الترويج المخادع، لكنني، مع أن يظهر الكتاب متشاكلاً: عنواناً، لوحة أو لوحات، ومضموناً، ويضيف بعناصره الكلية الاختلاف المفيد، فيجعل من لوحته - أو لوحاته - بعداً جمالياً، متناقفاً مع النص المبدع، ومتناقفاً للمتلقي. وبذلك، يكون الكتاب كوحدة كبرى متكاملة، تحقق جماليات القراءة والتلقي، كما تحقق جماليات الأسلوب بكل ما في هذا المعنى من لا معان ودلالات تضيف إلى اللحظة حالتها الإبداعية المتفردة.

رابعاً - اللوحة بين النشر الورقي والنشر الإلكتروني:

في زمننا الراكض وراء جنونه الرقمي، صارت اللوحة أو الصورة، عنصراً رئيساً من عناصر النشر والطباعة، ولا بد أن تتوافر في هذا العنصر الذي هو اللوحة، الشروط المناسبة، من حجم، ودلالة، وحيز، وفراغ، وحضور، وغياب.. ولا بد لاكتمال الدلالة الرؤيوية مع حواسها الأخرى، أن تكون اللوحة ذات أبعاد إشارية، لا تستولي على مخيلة القارئ بالكامل، بل تسعى لأن تترك له مخيلته طليقة، بغية الجوبان في الذي لا

يدوم من اللون والخط والجمال.. تماماً، كما يفعل النص الإبداعي العظيم، وهو يترك المتلقي سابقاً في مداراته المتعددة التي تحتاج إلى كينونة استبصارية، وروح مثقفة، متفتحة، ومشرقة، لكي تستمر الصورة الاحتمالية فوق الاحتمالات..

لكن، هل تم توظيف تقنيات النشر وفنياته في المجال المناسب؟

كثيراً، ما ترافق النص المكتوب لوحة أشد استشرافاً، وأبعد إشعاعاً، فنتوقف أمام اللوحة متناسين النص المترهل، الهش، المكرور!

وقد نجد موازنة هارمونية ما، بين النص واللوحة، فيكمل أحدهما الآخر..

وقد يستغني النص عن اللوحة مهما كانت باذخة فنياً، كونه أنجز ذاته بلوحاته المكتوبة المحلقة إلى غوامض الإدهاش، وأسرار الإبداع، وبرازخ الغرابة!

تري، هل سيؤثر وجود أو لا وجود لوحة لغللاف ملحمة هوميروس الإلياذة والأوديسا؟ وهل سيتأثر نص كل من رسالة الغفران أو ألف ليلة وليلة وجلجامش والإينوما إيليتش، مثلاً، إذا لم يكن لها لوحات أو أغلفة؟!

كلا.. بكل تأكيد، ستوافقونني، وتجيبون

إذا اتفقنا على ذلك، أستطيع القول: إن النص الإبداعي لا يرتكز على ما هو خارجه أبداً لينطلق، ويندفع، ويتفاعل، ويكون فاعلاً.. لماذا؟ لأنه متكامل بذاته، وهذا ما أكدته لنا أمهات الكتب العربية والإسلامية والإنسانية، لكن الشكل، من لوحة وغللاف، عاملان، قد يكونا هامين، للمتلقي، وذلك لزيادة ترغيبه في القراءة، والاقتراب من عالم الكتب: الورقية والالكترونية على حد سواء..